مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ عَبَسَ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة عبس

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة عبس

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

ابتدأت سورة عبس بفعلين يحملان صفتين للإنسان عندما يكون منشغلاً بأمر، وينزعج من أمرٍ يأتي إليه فجأة، ثم يأتي من يخاطبه في شأن وهو مشغول بشأن آخر. فقال اللهُ تبارك وتعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي: قَطَّب جبينه بالعبوس، وهو انقباض الوجه ﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي: وأعرض. وفي هذا الابتداء بهذا الوصف ما يشد الانتباه إلى ما بعده من بيان، وليفيد التشويق لمتابعة ما بعده.

ومن دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى لم يُعَيِّن هذا الذي عبس وتولى. ليأتي بعده بالسبب الذي جعله يُقَطِّب جبينه ويتولى. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ أي: بأن جاء الأعمى إليه، فقابله بعبوس الوجه والإعراض عنه. قال علماء التفسير أن هذه الآيات نزلت في الصحابي عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وكان مُصاباً بالعمى، وقد جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مشغول بنفر عنده من قريش، يدعوهم ويحاورهم في شأن إسلامهم، فقطب وانقبض وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، لهذا السبب. فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. أنها نزلت في ابن أم مكتوم، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول: يا نبي الله أرشدني. وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين. فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يُعرض عنه، ويُقبل على الآخر[١] بما يُظهر حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إسلام من عنده، فجعله يعبس ويعرض عن أم مكتوم رضي الله عنه. بما يبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اجتهد فيما كان يعتقد أنه الأولى. فبين سبحانه وتعالى الصحيح فيمن له الأولوية كما بينته الآيات الكريمة.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/١٠٢-١٠٣)

ومن دقائق البيان في هذا الإخبار: أن الله تعالى قد سَمَّاه بما هو عليه من الْضُّر، وهو العمى، فقال تعالى ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ للفت الانتباه إلى أولويته بما هو عليه من الضر. ولم يُسَمِّه عَزَّ وجل باسمه، لتعم فائدة التوجيه بالعموم لا بالخصوص والتخصيص. مما يبين دقة التوجيه الكريم في إظهار المقصد من البيان، بأنه للتعليم وتصويب المفاهيم، وتصحيح الأساليب، وترتيب الأولويات. وبما يبين عظمة كلام الله تعالى في كل توجيه وبيان، يلفت الانتباه إليه، ويعالجه، ويصحح فيه المفاهيم.

فقال تعالى مصححاً لأولوية المقابلة والاهتمام ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ فما الذي يدريك عن مبتغاه أيها الرسول صلى الله عليه وسلم؟ فلعل غايته من مجيئه إليك هو إرادته أن ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي: يتطهر من ذنوبه في شيء وقع فيه. فاحتمال أن شأنه يستلزم الاتجاه إليه، وينافي الإعراض عنه. بما يفيد: أنك لا تدري عن حاله حتى تُعرض عنه. فإنك لم تكن دارياً بحاله، مما يبين أن الغاية من الاستفهام هو التنبيه على خفايا النوايا التي لا تعلمها إلا بعد أن يُفصح عنها صاحبها. فقد يكون مبتغاه الطهارة من الذنوب بالعمل الصالح الذي سيعرفه ويتعلمه منك.

ومن لطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، وإعلاء مكانته أنه لم يسمه. بل أسند التوجيه في العتاب إلى ضمير الغائب، إكراماً وترفقاً به من ربه عَزَّ وجل. وكذلك أن الله تعالى ذكر الأعمى ولم يسمه، لتعم فائدة التوجيه بالعموم لا بالخصوص والتخصيص. وأن القصد هو تصحيح وتصويب المفاهيم. وبما يبين أهمية الإيعاز من غير تعيين وتحديد. وبما يُعَلِّم أدب الخطاب، وأدب التوجيه، وأخلاق التعامل. وفيه الترفق مع من هو أهل للرفق كالأعمى. وفيه كذلك أن النصح أمر جارٍ على الإنسان. وأن النصح لا يقلل من قدر ومنزلة المنصوح.

ثم انتقل البيان الكريم إلى احتمال آخر، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ فإن لم يكن المراد أنه يريد أن ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ فقد يكون المراد من هذا الأعمى هو طلب ما يُذكره بالحق. فقال جَلَّ شأنه ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ إي: فإن لم يطلب التزكية فقد يكون طلبه هو أن تُذكره بالحق بما تعظه به ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ فينتفع بالذكرى من الموعظة التي تعظه بها، أو بما يكون من القرآن الكريم.

والمتأمل يعلم بأن الله تعالى عليم بما كان من الأعمى، ولكن أورده سبحانه وتعالى على سبيل أحد الاحتمالين التي تتوافق مع حال الإنسان ومراده. فوضع الله عَزَّ وجل هذين الاحتمالين ليتعلم بها النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من المؤمنين أنه لا يعلم بمراد من يأتيه إلا بعد أن يُفصح عن مراده. بحيث يأخذ بكل احتمال، دون أن يقصره على احتمال قد ينافي الحقيقة.

وهنا لم يُسَمِّ اللهُ تعالى الذي عبس. وإنما ذكره أهل العلم عن الصحابة، وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. مما يبين أن الهدف والغاية هو توسعة المقصد والغاية من معالجة ذلك الشأن، ليعم نفعه جميع المؤمنين، حتى ينتفعوا به في جميع مقابلاتهم لمن يأتيهم. فهو استثمار لموقف حتى يكون ذلك قاعدة ومنهجاً يتعامل بها المؤمنون. فيعالج بها سبحانه وتعالى الكثير مما يكون من الإنسان مع غيره. وهو منهج غاية في الأهمية لكل مسلم، وخاصة في مجال مقابلة الناس في الجانب التعليمي، والإداري، ممن لهم حاجات مختلفة ومتباينة عند غيرهم. ومن الفوائد كذلك أن الله تعالى أثبت للرسول صلى الله عليه وسلم اجتهاده في الحرص، ولكن فاته الأولى مما أرشده الله تبارك وتعالى إليه.

ثم يصحح سبحانه وتعالى مفهوماً آخر عمن نعتقد أن له غنى ووجاهة، فقال تعالى ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي: وأما من كان مستغنياً في نفسه عما جئت لهم به من الهدى. ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي: تُقبل عليه بوجهك. أي: فأما من كان ذا غنى في نفسه عن غيره، فيرى من نفسه أنه مستغنياً عن الإيمان، وعن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بسبب استكباره، فتُقبِل عليه بوجهك ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ فأنت تُقْبِل عليه بوجهك. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: استغنى عن الله تعالى، وعن الإيمان، بماله[١] وقال الطبري رحمه الله تعالى: أما من استغنى بماله فأنت له تتعرض، رجاء أن يُسلم[٢] بما يفيد أن الواجب والأولى هو الإقبال على من جاءك يسعى.

ثم يخبر الله تعالى بقاعدة مهمة في شأن المسؤولية عمن يؤمن ومن لا يؤمن. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ فأي شيء عليك، وأي لوم عليك إن لم يُسلم. بما يفيد أن الواجب عليك هو دعوته وإرشاده وتحذيره، وبأن لا تهتم لشأنه إن لم يَقْبَل الإسلام. فليس عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلا البلاغ. بما يفيد أنك لست مسؤولاً عن الذين لا يسلمون بعد قيامك بما هو واجب عليك من دعوتهم، وبيان الحق لهم. مما يبين أن مهمة الداعية والمصلح والموجه تنحصر في الإبلاغ، وهداية الدلالة على الخير، والترغيب فيه. وأما القبول بالإسلام أو الحق أياً كان نوعه فليس مُوكل للداعية إلى الخير والهدى.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى حال من يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدله ويبين له الحق، وهو الأعمى الذي جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ وأما من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٠/٨)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٧/٢٤)

أتى إليك قاصدك، بل وكان جاداً في مجيئه، بدلالة السعي إليك ﴿ جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ طالباً منك الإرشاد له بالخير، وحاله مخافة ربه سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ فإن حاله عند مجيئه إليك أنه كان في خشية وخوف من الله تعالى، من أن يلحقه تقصير في طاعة ربه تبارك وتعالى ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي: لم تُرعه سمعك فتُصغي إليه، أي: انشغلت عنه بمن استغنى. ومعنى التلهي: الاشتغال بغيره عنه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأصله تتلهى. يُقال: لهيت عن الشيء، ألهى، أي: تشاغلت عنه. والتلهي: التغافل، وتلهيت عنه، وتليتُ بمعنى واحد[1] مما يُعلم المؤمن منهجية التعامل، وحدود التكليف التي لا تتجاوز هداية الدلالة، بالإرشاد والنصح والترغيب، وأما هداية التوفيق، فلم يُكَلِّفُ اللهُ تعالى بها المرسلين، وبالتالي لم يكلف بها أحداً من الناس. وقد أعطى هذا البيان من الله تعالى المنهجية في التعامل مع الغير.

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾

ثم ينفي الله تعالى صواب ذلك التصرف، وذلك الأمر مع الأعمى. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ ليس الأمر الصواب كما حدث، لأن ﴿ كَلَّآ ﴾ أداة نفي عن صحة وصواب ما كان، ثم يُثبت بها الموعظة ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ فإن هذه الموعظة والتوجيه الكريم من الله تعالى تذكرة للعباد من ربهم عَزَّ وجل، فإنه بهذا النهي يُظهر ما يصحح ويبين به الصواب. ثم يدعو تبارك وتعالى عباده إلى الأخذ بتلك التذكرة من خلال ترك الخيار لكل أحد مما وعظ به عَزَّ وجل ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ وفي ذلك إثبات المشيئة للإنسان الذي يحاسبه اللهُ تعالى عليها، فمن شاء اتعظ والتزم بما أخبر الله تعالى به، ومن شاء حاد عنه، فيجازي اللهُ عَزَّ وجل كل أحد بما يستحق. فمن شاء عمل بما بَيَّنَّا ووعظنا ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ ليفيد قوة الحث على ما وعظ به سبحانه وتعالى بأسلوب التخيير مع الوعيد لمن لم يأخذ بهدي الله تعالى.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٤٠)

ثم يبين ويُمَجِّد عَزَّ وجل ما تضمنه القرآن العظيم من الوعظ والتذكرة. فقال تعالى ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أي: أن هذه التذكرة من هذه السورة ومن غيرها ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ في كتب مكرمة، مرفوعة القدر والمنزلة والمكانة. وهي تعني أنها في اللوح المحفوظ، وقيل أنها: كُتُب الأنبياء ﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ عالية المكانة والمنزلة، ومطهرة من كل سوء وخلل. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه يكون معنى ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ عالية القدر، إذا قُصد بها كتب الأنبياء. ومرفوعة في السماء إن قُصِد بها اللوح المحفوظ[١] فجمع السياق الدلالتين معاً، من غير تعارض ولا تضاد، فإن الكتاب أصله في اللوح المحفوظ، وآيات القرآن وسوره، وكتب الأنبياء جميعاً عالية القدر والمنزلة، لأنها من عند العليم الخبير. وهذا من بلاغة البيان، وأوجه الدلالات المتعددة التي تميز بها القرآن العظيم، في استيفاء الدلالات المتعددة بنص واحد.

ثم أخبر جَلَّ جلاله بأن هذه الصحف ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وهم الملائكة. وسماهم سبحانه وتعالى بأنهم ﴿ سَفَرَةٍ ﴾ لأنهم سفراء بين ربهم وبين المرسلين عليهم الصلاة والسلام. وأيضاً من صفاتهم أنهم ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ فهم في منزلة كريمة عند ربهم، وأيضاً هم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي: مطيعين لربهم جَلَّ جلاله، فلا يعصونه ولا يخالفونه في شيء سبحانه وتعالى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هم الملائكة الذين جعلهم الله تعالى سفراء بينه وبين رسله، فهم برره، لم يتدنسوا بمعصية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي مطهرة، تجعل التطهير لمن حملها[٢] مما يبين فضل وأثر كلام الله تعالى على من يحمله، ويعتني به.

ثم يشدد الله تبارك وتعالى على من يكفر به عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أي: لُعِن وهُلك من كفر من جنس الإنسان. فقد أعطت دلالة ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ شدة التعنيف على الكافر الذي استغرق في كفره وطغيانه. قال مجاهد رحمه الله تعالى: ما كان في القرآن: قُتِل الإنسان. أو فُعل بالإنسان، فإنما عُني به الكافر[٣] ثم أورد تبارك وتعالى بيان شدة كفره هذا الكافر، إذ قال تعالى ﴿ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ أي: ما أكثر شدة كفره، مع عظيم الآيات والحجج الظاهرة له. وبما أنعم الله تعالى به عليه. وتأتي أيضاً بدلالة: التعجب، ما الذي أكفره؟ ما هو الشيء الذي يمنعه من الإيمان والآيات، والحجج التي تنهال عليه في الكون وفي أنفسهم،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٢/٨)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٤١/١٩)

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٠/٢٤)

وما جاءت به الرسل. ففي ذلك لفت الانتباه للإنسان بأن ينظر في مساره، ويعيد تفكيره وفق هذه المعطيات من الحجج التي ظهرت له من الله تعالى.

ثم يعظ الله تعالى عباده الكافرين، بأن ينظروا إلى مكونات ومراحل خِلْقَتِهِم الضعيفة، التي حدثت بتدبير الله تعالى، فجعله إنساناً متحركاً على الأرض. فقال جَلَّ جلاله ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ سؤال استفهام لشد الانتباه إلى أصل الخلقة التي تستوجب على من تفكر فيها تحقيق الإيمان والإذعان للخالق تبارك وتعالى. مما يبين ويفيد أهمية السؤال في تقرير الحقائق، فإنه أسلوب يعيد الإنسان إلى التأمل والتدبر والتفكر.

وبعد أن تشوق الْمُخَاطَب إلى جواب هذا السؤال، قال الله تعالى ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ فإن أصل أطوار هذا الإنسان الذي خلقناه أنه كان نطفة، تخرج من بين صُلب الرجل وترائب المرأة، وسُمِّيَ نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فهو إيجاد له بعد العدم من تلك النطفة ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: خلقه على مقدار وصورة وأجل، ورزق، وعلى هيئة سوية في أحسن تقويم. ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ ثم يسر له طريق الخروج من بطن أمه، ويسر له أسباب الحياة، وأسباب الاهتداء. فقد جمعت دلالة ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ كل تيسير لهذا الإنسان منذ أن كان نطفة إلى أن أقبره، حيث قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ ثم بعد هذا الإيجاد، وعظيم التيسير المتلاحق والمتتابع في هذه الحياة الدنيا ﴿ أَمَاتَهُۥ ﴾ أي: يُميته، فلا يستطيع هذا الإنسان أن يمنع عن نفسه الموت أبداً، ثم بعد إماتته فإنه يُقبره ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أي: بدفنه في القبر. وقد أسند تبارك وتعالى الخلق، والتقدير، وتيسير السبيل والطريق والإماتة، والإقبار في القبر إليه عَزَّ وجل، بما يفيد أن الله تعالى هو الذي خلقك، فأخرجك في هذه الدنيا، ومررت بهذه الأطوار المختلفة ثم أماتك، ثم تُقبر في قبرك. وقد جعل الله تعالى بهدايته أن بني آدم يقبرون بعضهم بعضاً عند الموت، وبالتالي فما الذي يجعلك لا تقر بالبعث بعد الموت؟ وقد أدركت ما سبق من تدبير الله تعالى لك.

ثم بعد تلك المراحل من التدبير ينتقل البيان إلى شأن الإنسان بعد الموت، وما يحدث من البعث الذي ينكره الكافرون. فقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ ثم بعد الموت وإقبار الإنسان في القبر يبعثه الله تعالى، بأن ﴿ أَنشَرَهُۥ ﴾ والنشر هنا هو الإحياء بعد الموت. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: بعثه بعد موته، ومنه يُقال البعث والنشور[1] وقد أكد تبارك وتعالى نشره بأنه بإرادته عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ أي: إذا شاء

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٥٠٣)

أنشره في الوقت الذي يحدده جَلَّ جلاله، وهو ساعة يوم القيامة. بل جعل عَزَّ وجل مشيئته هي الكائنة زمناً وفعلاً، ولو شاء لما كان البعث. ولكن اقتضت مشيئة ربكم أن يكون هناك بعث ونشور، وحساب وجزاء، وجنة ونار. ولكل إنسان ما اكتسب.

ثم يُخبر الله تعالى بما يفيد التحذير، والحث على بذل الجهد في الطاعة. فقال عَزَّ وجل ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: حقاً ليس الأمر والشأن كما يقول الكافر. وإنما الأمر هو أن يموت الإنسان ويُقبر وهو لم يستوف ما أمره الله تعالى به ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ يموت وهو لم يقم بحق ربه عليه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الكافر من أنه قد أدى حق الله تعالى عليه، في نفسه وماله ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ لم يؤد ما فرض الله عليه من الفرائض. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه ربه[1] مما يشمل المؤمن والكافر، فالمؤمن مهما عمل فإنه يعتريه النقص. والكافر لم يقم بشيء من ذلك، فما قضى شيئاً مما أمر الله تعالى به. مما يبين أن على الإنسان أن يبذل قصار جهده في طاعة ربه، فإن حقوق الله تعالى لا يستوفيها الإنسان حقيقة مهما اجتهد، فسددوا واجتهدوا.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى ابتداء خلق الإنسان، وما يَسَّرَ لَهُ ربه تبارك وتعالى من الإنعام المتنوع، وأن هذا الإنسان يموت وهو لم يستوف أداء وقضاء ما أمره به ربه، فبعد ذلك ينتقل سبحانه وتعالى بعبده إلى التأمل والتفكر فيما يغرس الإيمان في القلب، ويشده للطاعة والامتثال لربه جَلَّ جلاله. فيقول جَلَّ شأنه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ فليتأمل هذا الإنسان ببصره وبصيرته إلى شأن تدبير طعامه، كيف ابتدأ؟ وكيف نشأ؟ وكيف وصل إليه؟ وكيف هو تنوعه؟ المتوافق والمتجانس مع حاجته، وما أودع الله تعالى فيه من تنوع الرغبات، وتقلبها وتغيرها.

فإن في هذا الأمر من الله تعالى بالنظر والتأمل ما يجمع العديد من الفوائد. فقد ورد النظر بصيغة فعل الأمر ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ الذي أفاد وجوب النظر لتحقيق المغزى والمراد مما أُمِرَ به. وهو فعل أمر يشد الانتباه، ويُلفت جميع حواس المتلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في شأن الطعام، ليكتشف ما هو فيه من الالتهاء عن أسباب الإيمان وأداء الطاعة، والامتثال لله تعالى. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٤/٢٤)

والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، إذ يتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ﴾ أنها تَلفِت الانتباه، مع تقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿ فَلْيَنظُرِ ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويُمْعِن النظر حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بغياب عقله عن دلائل إنعام الله تعالى عليه، والتي تُوجب كامل الإيمان، بما في ذلك التصديق والاعتقاد الجازم بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار. وأن فساد السلوك والقلوب هو بسبب عدم التأمل والتدبر. وهو الأمر الذي جعلهم ينكرون البعث، ولا يؤدون ما أمرهم الله تعالى به من العبادة والطاعة. بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، ومغزاه العملي في تربية النفوس، وتوجيه العقول، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه.

كما تجمع دلالة الطعام في قوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ جميع ما يأكله الإنسان، مما كان أصله من الحيوان أو النبات ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ وليشمل التأمل في نشأة هذا الطعام، وفي تنوعه، وكميته، وتنوع لذائذه، وتجانسه مع تعدد وتنوع وتقلبات رغباته، وعدم صبره على طعام محدود واحد. فمن تأمل في تفاصيل طعامه أيقن بعظمة الخالق تبارك وتعالى، واستوجب من العبد شكر ربه، والتفاني في طاعته، والامتثال لأمره جَلَّ جلاله، والإيمان بالبعث بعد الموت.

ثم انتقل البيان الكريم بالْمُخَاطَبين إلى شيء من تفاصيل ذلك الطعام، وبدأ البيان بتفاصيل شأن أصل وجود الطعام، الذي يحدث وينشأ أصله بانصباب الماء من السماء على الأرض. حيث قال تعالى ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ إنا أنزلنا الماء على الأرض إنزالاً كثيراً، وكافياً للإنبات، بما يفيد الكثرة التي تستوفي حاجتكم، وقد أكد تبارك وتعالى ذلك بتكرار فعل الصب من الماء بالمفعول المطلق ﴿ صَبًّا ﴾ الذي أفاد المبالغة المؤكدة. ثم أردف هذا الإنعام بما ترتب عليه من خروج النبات من الأرض. فقال تعالى ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ ثم بهذا الماء الذي أنزلناه على الأرض، جعلنا به الأرض تتشقق، فيدخل هذا الماء في جوفها، ثم رتبنا عليه الإنبات ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ فأنبتنا في الأرض بهذا الماء أنواع الحبوب. وقد أفادت دلالة ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أصناف وأنواع وأشكال الحبوب المختلفة، كالقمح والشعير والذرة والدخن والأرز، وغيرها من أصناف الحبوب.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أصنافاً من الفواكه، والتي بدأها عَزَّ وجل بالأعناب، فقال تعالى ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ والعنب هو ثمر الكرم، وأما القضب فهو الرطب من الثمرة، وقيل هو ما تأكله الدواب. وهو ما يتكرر قطفه مرة بعد أخرى. ثم أعقب ذلك بنعمة إنبات الزيتون والنخيل. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ وهما شجرتان مباركتان، لما فيهما من الانتفاع المتنوع، فالزينون غذاء، وزيته غذاء، والنخل تمره غذاء، وبقية مكوناته من السعف والجذوع والأقنية متاع متنوع، لما يتحقق به من أنواع الانتفاع في عموم حاجات الإنسان.

ثم بعد هذا التفنيد أورد تبارك وتعالى التعميم، بعطف العام على الخاص. بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ أي: وبساتين كبيرة وكثيرة، مع قوة جذوعها. قال الكلبي رحمه الله تعالى: وكل شيء أُحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة. وأما وصف الحدائق بأنها ﴿ غُلْبًا ﴾ ما يفيد العظمة والقوة والشدة، والطول، والالتفاف، بعضها ببعض، قال القرطبي رحمه الله تعالى: عظاماً شجرها. يقال شجرة غَلْبَاء، واغلولب العشب: بلغ، والتف بعضه ببعض(١) ثم عطف عليها الفواكه المتنوعة. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فالفواكه ما يأكله الناس من ثمار الأشجار ﴿ وَأَبًّا ﴾ ما تأكله الأنعام من الأعشاب. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ما ترعاه البهائم، قاله ابن عباس وعكرمة واللغويون. وقال الزجاج هي المتكاثفة العظام(٢)

فنبه سبحانه وتعالى إلى ما يحتاجون إليه من أنواع الطعام لهم، وما يحتاجون إليه من إطعام البهائم، كالأنعام والطيور وغيرها. ثم أكد ذلك لأهميته، فقال عَزَّ وجل ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي: من أجل أن تتمتعوا به أنتم وأنعامكم، من هذه النعمة العظيمة الجليلة. فإنه ﴿ مَّتَٰعًا ﴾ أي: منفعة لكم، ولأنعامكم من الإبل والبقر والأغنام، وعموم أوجه الانتفاع التي لا تُحصى. بما يعني: عظيم الإنعام عليكم من ربكم عَزَّ وجل، والذي لو تدبره الإنسان لتواضع لله تعالى شكراً وامتثالاً وطاعة. وبما يفيد ويعني أن هذا الخلق والتسخير هو من أجلكم أيها الناس، ومن أجل عموم أنعامكم التي تنتفعون بها في أمور شتى. بما يستوجب عليكم شكر ربكم وحمده بطاعتكم له عَزَّ وجل، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم. وأن في هذا الإنعام إثبات وجوب حق الله تعالى عليكم بالطاعة والامتثال، والإيمان بالغيب، ومنه التصديق بالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩/١٤٤-١٤٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٨٥)

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن أورد تبارك وتعالى دلائل الإنعام والتفضل، ينتقل البيان الكريم بالْمُخَاطَبين إلى يوم القيامة، وعظمة ورهبة ما في أحوالها، وانقسام الناس في شأن القيامة إلى قسمين: المؤمن بها، والكافر المنكر لها. فقال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ والصاخة اسم من أسماء يوم القيامة. فإذا وقعت الصيحة بما فيها من الشدة العظيمة التي تصخ الأسماع بقوتها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، عَظَّمَهُ اللهُ تعالى، وحَذَّر عباده منه. قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: يعني: صيحة القيامة. سُمِّيت بذلك لأنها تصخ الاسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها[1] مما يدل على عظيم هول ذلك اليوم. ومن دقائق البيان أن أورد الله تعالى بيانها بحرف المفاجأة ﴿ فَإِذَا ﴾ بما يناسب حدوثها الذي يكون فجأة. وكذلك تسميتها ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ التي تصخ الآذان من قوتها حتى تكاد أن تصمها من قوة صوتها. بما يفيد المبالغة في قوتها، حتى في تسميتها الدالة على شدة قوتها ﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ بما يعني عظيم هولها وقوتها.

ثم يزداد الوصف لذلك اليوم بإظهار ما يكون من الإنسان مع أقرب الناس إليه، فإن الخوف يتجاوز به جميع العواطف التي هي من طبع الإنسان، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ أي: يهرب، فلا يلتفت لأخيه الذي هو من أمه وأبيه، فيكون حاله هو حال الفار، أي: الهارب. فمقتضى فراره من أخيه دليل على قوة الفزع، وذكر الأخ لأنه من ألصق الناس به في طفولتهم، وتعاضدهم، وتوادهم. ثم يرتقي البيان إلى الأبوين ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ وهما أشد الناس عاطفة ومودة لأبنائهم. وتم تقديم الأم على الأب، لإفادة ترتيب قوة العاطفة.

ثم انتقل إلى الصاحبة، التي هي الزوجة، فقال تعالى ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ فإنه يفر هارباً حتى من زوجه التي عطف عليها الأبناء، الذين يمثلون أسرته التي كان يتعايش معهم، ويبذل نشاطه وكسبه في رعايتهم. وسُمِّيت الزوجة هنا بالصاحبة، لإظهار الزمن في طول المصاحبة، والمرافقة والملازمة الطويلة. فإن في اختيار الصحبة بدلاً من الملازمة ما يُظهر قوة المعنى، والمقصد، وبلاغة البيان في تحرير دقة المقصد والمراد.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٥٠٥)

ومن دقائق البيان هو الترتيب التصاعدي بحسب المعايشة معهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ورُتِّبَت أصناف القرابة في الآية بحسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجاً في تهويل ذلك اليوم(١) وهو كذلك تصاعد من حيث الزمن والمعاشرة، فأول ما تكون شدة المعاشرة مع الأخوة في اللعب والعيش والمعايشة، ثم الوالدين بإدراك فضلها والإحسان إليهما، ثم الانشغال والاهتمام بزوجته وبنيه.

ثم يذكر تبارك وتعالى السبب في ذلك الفرار. فقال تعالى ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فإن كل واحد من هؤلاء القرابة مشغول بنفسه عن غيره، وأن غيره مشغول بنفسه عنه. فكل واحد مشغول عن الآخر بما هو فيه من الهم وشدة الحال. وسَمَّى الله سبحانه وتعالى هذا الذي انشغل كل واحد منهم به ﴿ شَأْنٌ ﴾ لإفادة قوة التعظيم لما هو فيه، وأكده وفسره بأنه شأن ﴿ يُغْنِيهِ ﴾ فهو مستغني بهذا الاشتغال عن أن يشتغل بشأن غيره من أقرب الناس إليه. ليدل على قوة وفظاعة وهول ذلك اليوم. وبما يفيد أن عليكم أيها الأحياء في كل زمن بأن تستعدوا لذلك اليوم بالطاعة والامتثال لله ربكم سبحانه وتعالى. لأنه في ذلك اليوم ينقسم الناس إلى قسمين: الأول: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ وهم أهل الإيمان والتقوى. والقسم الثاني: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ وهم الكفرة الفجرة.

فقال تعالى عن القسم والنوع الأول ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أي: وجوههم في ذلك اليوم مستنيره بالبشر والفرح. والإسفار هو: النور والضياء(٢) بما يفيد: أنه لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. وكذلك من صفاتهم أن وجوههم ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي: ضاحكة من الفرح، وكذلك ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي: متهللة مسرورة فرحة، بما نالها من ثواب وجزاء الله تعالى لها. فقد ظهر السرورُ والبِشْرُ والفرحُ على وجوههم بالضحك والابتسامات وانشراح الوجه. وفي هذا ترغيب ودعوة من الله تعالى للإيمان والطاعة، لتحصيل ذلك الفضل الدائم الذي لا ينقطع.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار حال الكفار في ذلك اليوم، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي: سواد وكآبة. فهي مليئة بغبار الموقف الذي هي فيه، نكاية وإهانة لهم. فلا شيء يفرحهم، فإن كل شيء أمامهم يرهقهم ويخيفهم ويهينهم، كما قال تعالى ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي: يعلوها ويغشاها

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٩٠/١٢)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٩٣/١٢)

ويهلكها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ وهو الذلة والسواد. قال القرطبي رحمه الله تعالى: تغشاها قترة، أي: كسوف وسواد. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما. وعنه أيضاً: ذلة وشدة. والقتر في كلام العرب: الغبار[١] ثم يخبر الله تعالى بأن هذا النوع والقسم الذين وجوههم يوم القيامة عليها غبرة هم الكفار الفجار. فقال عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ فوصفهم بوصفين جامعين للاعتقاد، وللعمل: فالوصف الأول: ﴿ ٱلْكَفَرَةُ ﴾ الذين كفروا بالله تعالى وبرسله، وهو متعلق بالجانب الاعتقادي، وليجمع هذا الوصف جميع من كفر إلى يوم القيامة. والوصف الثاني لهم، هو: ﴿ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ الذي يتناول الجانب العملي في حياتهم. وهو: المفتري، المجترئ على دين الله تعالى. فتجاوز بأعماله جميع الضوابط في كل شيء يخص الدين وغيره، فهو المبالغ في كفره ومسلكه.

مما يبين أن الله تعالى قد حذَّر وأنذر عباده من يوم القيمة، وأحوال الناس فيها، وبالتالي لا يلوم الإنسان إلا نفسه. وهذا البيان هو رحمة من الله تعالى للمخاطبين، إذ يعلمهم ويعظهم بما تم بيانه عن حال يوم القيامة، وأحوال الناس فيها. بما يفيد أن عليكم طاعة ربكم، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو خطاب تحذير من أن يسلك الإنسان مسلك الكفر والعناد والفجور، وأن عليهم طاعة الله تعالى، واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، حتى يفوزوا في يوم القيامة بالنجاة من النار، ودخول الجنة بسلام. ونسأل الله تعالى حُسن الخاتمة لنا ولجميع المسلمين، ودخول الجنة بسلام، بلطفه ورحمته إنه هو الغفور الرحيم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة عبس. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٤٧/١٩)